ديزي الامير

كان وكان ...

في نافذة العرض الزجاجية عدد من الفساتين الجميلة . ذاك لونه محبب لديها ، والاخر احدث صرعة في الازياء الحديثة ، وثالث عملي يصلح لكل يوم ، فايها تختار ؟

غرفة الهاتف العمومي فارغة . دخلت اليها ، وضعت قطعة النقد وادارت القرص .. رن الهاتف . وانتظرت ان تسمع صوته لتساله اي الفساتين تختار . يجب ان تفضل فستانا باللون الذي يحبه هو .

ورن الهاتف .. رن ورن ولا من مجيب . اين تراه الآن ؟

المفروض انه في البيت ، هذا يوم عطلة بالنسبة اليه ايضا ، فاين خرج ؟ ولم لم يخبرها ؟

عادت الى واجهة العرض ، وحين لم تر لونه المفضل ، تركتها وسارت .

اليوم عطلة . ستمضي فترة منه تتفرج وتشتري ما تشتهي .

امس استلمت راتبها الشهري وهي سعيدة ، شهيتها للحياة عميقة ودنياها مملوءة رضى .

وقفت امام واجهة الكتب . لقد ترجم الكتاب الذي ملأ الحديث عنه صفحات المجلات ، الى العربية ، وتستطيع قراءته الان . لو كان هو في البيت لاخبرته عن ترجمة الكتاب الذي ينتظران . لم هو ليس في البيت ؟ واجهة امامها ملأى بالادوات البيتية ، بعضها مفر كثيرا . هل تبدأ شراء حاجيات البيت وحدها ؟ ذوقه رائع في الاختيار ، وحاجيات بيتهما ستعجب الاصدقاء الذين يعرفون ذوقهما المشترك المتشابه الحلو. لم هو ليس في البيت ؟ لم هو ليس معها يشاركها اختيار حوائج المستقبل ؟

مرت بها سيارة تشبه سيارته . نفس اللون ، نفس النوع . مدت راسها ، ولكن السيارة عبرتها بسرعة .

واحست انها بحاجة الى العودة الى البيت . اصبحت لا تستطيع اختيار شيء وحدها ، تريد رأيه ومشاركته وذوقه ونظرة الحنان من عينيه تعلنان رضاه .

وصلت البيت ، وبينما هي تستعد للسهرة رن الهاتف وسمعته يسال : هل آتي لاصطحابك ؟ فاستمهلته بعض الوقت لتكمل زينتها وتاملت نفسها في المرآة طويلا قبل ان يأتي للقائها .

في المطعم ، قدمت لها قائمة الطعام ، فاختارت صحنا سعره غير مرتفع ، فنظر اليها معاتبا ولم يقل ما اعتاد ان يقول اذ كان النادل ينتظر الطلب ، وحينما ابتعد عاتبها بصوته الحنون على مبالغتها بالتوفير . اجابته انها لا ترضى ان يهدرا مالهما . لم لا يدخرانه للمستقبل ، للبيت ، للاولاد ، للشيخوخة الحلوة ، لكل ما هو آت سعيد ؟

قالت فجاة : رايت اليوم سيارة قرب المكتبة تشبه سيارتك تماما، وعلى فكرة ، اين كنت اليوم ، خابرتك فلم اجدك في البيت ؟

اجاب : كنت في السيارة التي حسبتها تشبه سيارتي .

تمنت لو لم تساله اين كان .

كان عليها ان تحضر في اليوم التالي افتتاح مؤتمر ، وقالت له انها ستتاخر عن موعدها المسائي اكثر من ساعة لان البرنامج كثيف .

وفي الطريق ، في المرآة الصغيرة لسيارتها ، رات صورة كبيرة واضحة .

راته هو . راته هو بعينه ، وسيارته تسير وراءها وبجانبه راس امراة . اشارت اليه فلم يرها . كان منشغلا بالحديث مع جارته . ابطات في سيرها لعل سيارته تحاذيها ولكنه انعطف الى شارع جانبي واختفى عن نظرها .

حين التقت به سالته ضاحكة : ـ من هذه الحسناء التي كانت بجوارك ؟

قال بكل هدوء : ـ امراة تحتاج مساعدة ..

فقاطعته : انا لم ارها تماما فهل هي جميلة ؟

اجاب : حين تلتقين بها ؟ تقررين انت درجة جمالها .

وتعجبت ، لم يريدها ان تلتقي بها ؟ ولكنها رات ان تغير الموضوع، فالحديث عن الاخرين يعكر صفو جلستهما الدافئة .

في المكتب وصلها امر حكومي بزيادة راتبها . طربت للخبر . انه تقدير مادي ومعنوي .

احست بحاجتها الى اخباره سريعا . سمعت في مكتبه رنين الهاتف ، ويتوقف الرنين ثم صوته يقول :

ـ تفضلي يا عزيزتي ...

ثم قال : ـ نعم .

وجدت نفسها تسال : ـ من هذه العزيزة .

ضحك عاليا وسال : ـ الهذا تكلمينني ؟

قالت : ـ لا .. لا ولكني ولكني ..

ثم صمتت .

ليومين متتاليين رات صدفة سيارته في مكان واحد غير قريب من بيته ولا من مكتب عمله .

وفي اليوم الثالث مرت متعمدة قرب ذاك المكان فوجدت السيارة واقفة .

سالته في اليوم الرابع : علام يوقف سيارته في ذاك المكان ، فقال:

زيارة صديق مريض .

في اليوم الخامس سألته عن صحة المريض فقال : ان اهله اخلوه الى اوروبا لاجراء عملية جراحية .

في اليوم السادس كانت سيارته في المكان نفسه ، فلم تسأله عن سبب وقوفها ، ولكنه رأى اسى على وجهها . سألها عما بها ، قالت انها متعبة ، وعلى ذكر التعب علق بانه زار اهل صديقه المريض يسألهم عن اخباره . فلم تعلق بشيء وازداد الاسى وضوحا على وجهها .

بعد اسبوع كانت احدى دور السينما تعرض فيلما جيدا فأخبرته عنه قال : انه لا يستحق المشاهدة فقد ترك الصالة في منتصف العرض. لم تسأله متى ذهب للسينما ، ومع من ترك الصالة . في طريق عودتهما لايصالها الى البيت ، مرا على المكان الذي يوقف فيه سيارته ، ادارت راسها لتكلمه واذا برأسه ، كل راسه خارج النافذة يتطلع نحو البيت ، يكاد يصطدم بالسيارات والعواميد .

لم يكلمها بالهاتف في اليوم التالي . لم يبدأ نهاره كعادته (يأخذ البركة) فقررت الا تبدأ هي مكالمته . ومر يومان لم يكلمها فيهما وتعجبت ، واستغربت ، ثم قلقت ، فسألت . اخبرها الحاجب انه مريض منذ ثلاثة ايام . اسرعت تسأل عنه في بيته اجابها صوت انثوي ولم تدر كيف اغلقت الهاتف رأسا دون ان تنبس بكلمة .

وبعد دقائق اعادت الكرة واتصلت به فأجابها هو بصوت ضعيف واهن .

عتبت عليه عدم اخبارها مرضه،فقال انه اراد عدم اقلاقها .سألته عمن يعتني به ، فقال لا احد ، لان اهل البيت مسافرون منذ اسبوع . عادت تسأله هل هو وحده تماما ، فاجابها بصوت حاول ان يخفي غضبه بانه وحده ويفضل ان يكون وحده في حالة المرض .

تمنت لو تستطيع زيارته ، ولكن البيت كما يقول ، فارغ من بقية سكانه وهي ، لا تستطيع زيارة رجل وحيد . فمن تراها صاحبة الصوت الناعم ؟ صاحبة هذا الصوت سمحت لنفسها ان تزور رجلا وحيدا في بيته وهو .. هو لم ير في هذا اية غضاضة ولم يتحدث عن وجودها .. يساعدها على اخفاء نبأ زيارتها .

وتمنت لو يشفى سريعا . لم تدر هل اهتماما منها بصحته ام رغبة برؤيته او ابعادا له عن ذات الصوت الناعم .

واخيرا شفي ، واجتمعت معه في حلقة تضم مجموعة اصدقاء مقربين تحدثوا عن فترة مرضه وكيف تحملها وحده وانه جبار يتحمل كل تلك الآلام وحيدا . وانتظرت ان يشير احدهم الى وجود صاحبة الصوت الناعم فلم يفعل . وفي اخر الجلسة سمعته يطلب ممن يجاوره، عدم اخبارها هي عن ذاك الموضوع .

النهار التالي كان يوم عطلة . ذهبا بمضيانه في مكان جبلي مشهور بآثاره القديمة السياحية .

وحين التقيا قال ان فتاة اجنبية ستصحبهما لرؤية المنطقة الاثرية .

هكذا فجأة ومن دون مقدمات توجد فتاة اجنبية تريد زيارة آثار الشرق .

من اين جاءت ؟ ومن هي ؟ ولم تصحبهما ؟ اسئلة لم تبح بواحدة منها ، وتألمت اذ عرفت سبب اختيار هذه المنطقة بالذات للزيارة .

الفتاة الاجنبية لم تكن اجنبية . جنسيتها اجنبية ولكنها تتحدث العربية بطلاقة .

كانت متحمسة جدا لرؤية الآثار وهي تزور وطنها الام بعد غياب طويل ، وتحمس الدليل لحماستها فبدأ يسرد اخبار الاثار . هنا كانت كنيسة وهنا كان المذبح . هنا كان يجلس المصلون وهنا كان عرش الملك. هنا كانت غرفة الملكة وهنا كان .. ، كان وكان .. كل شيء كان .

وجدت نفسها تعود الى السيارة تنتظر ان ينتهي الدليل من سرد اخبار ما كان .

وطال انتظارها قبل ان يعود هو والاجنبية التي جلست بجواره بصورة طبيعية قد اعتادتها .

مساء ذاك اليوم لم تستطع النوم . ربطت الاشياء ببعضها فبدت طبيعية وفصلتها عن بعضها فبدت طبيعية .

حين سألها اين يلتقيان اجابت انها متعبة وتريد الراحة في البيت. قال انه سيأتي لزيارتها ، فردت انها لم تتعود زيارة رجال غرباء .

قال : ـ تتحدثين عن الغرباء ...

ولم تدر كيف اجابته : ـ كنت قريبا .

ولايام ثلاثة متوالية يتصل بها يسأل عنها فتجيب بانها لا تزال متعبة . ويستفهم كيف تذهب الى العمل وهي متعبة الى هذا الحد ، فتعلل ذلك بحسها الشديد بالمسؤولية .

في اليوم الرابع سألها : اليس في نفسك حس بالمسؤولية تجاهي؟ هل العمل اهم مني ؟ انا في حاجة لرؤيتك ؟

اجابت : ـ ألم يعد صديقك المريض ؟ الا تزورك ذات الصوت الناعم ؟ وهل انتهت المناطق السياحية ؟ وعزيزتك الا تزورك في المكتب ؟ وصاحبة الحاجة هل انتهت مشاغلها ؟ وصديقك الا يزال قادرا على كتم الخبر عني ؟

اجاب ذاهلا : ـ ما هذا الذي تقولين ؟ ماذا جرى لك ؟ عمن تتحدثين ؟ هل تكلمينني انا .. انا !!

كان يدق الباب بعد دقائق ، وفتح معها الحديث لحظة جلوسه ، قال انه يريد ايضاحا عن كل ما قالت . اجابت انها لا تريد ايضاحا عما فعل لانها متعبة .

اقترب منه وامسك يدها وتأمل وجهها ، فلم تر الحنان في عينيه ولا في ابتسامته ، ولا في يديه .

قال : يا عزيزتي ، انت واهمة ...

سألت : هل انا عزيزتك ؟

قال ان الوهم نسج في خيالها قصصا غريبة وما سبق وقاله لها هو الصحيح فهي واهمة واهمة .

تأملته ولكن الوهم لم يكن وهما في نفسها .

سأل ان تخبره القصة ، ماذا تظن وماذا تتوهم وماذا يجول في راسها الغالي ؟

سألته : ـ اتراه غاليا .

توسل ان تصغي اليه والا تضيع عاطفة عمر بسبب وهم متعب .

قالت : ما تسميه وهما احسه حقيقة . حقيقة متعبة وانا الان اعيش هذا اليقين المتعب .

ـ ولكنها اوهام . انها اوهام ...

ـ ولكن كيف استطيع ان ازحزح الحقيقة ؟ كيف استطيع جعلها اوهاما ؟

ـ لانها اوهام ، صدقيني .

ـ انا الآن اصدق نفسي .

وقف وتطلع اليها فلم ترفع رأسها تلتقي بعينيه .

قامت الى غرفتها واستلقت على الفراش . كانت تحس انها مريضة تماما .

تأملت السقف ، وتأملته . رأت حشرة ملتصقة عليه ، سحبت الغطاء ورمته عليها ، فلم تطر الحشرة .

وقفت وتطلعت فوق واذا الحشرة خدش على السقف .

عادت تستلقي وحسها بالمرض يزداد ، وعاد نظرها الى السقف واذا بالحشرة لا تزال قابعة هناك . لم ترم شيئا تكش الحشرة به واكتفت بالنظر اليها تنتظر منها ان تطير .

بيروت